دور المسجد في التربية والتعليم في الفترة بين (1889.1940م) من وجهة نظر الشيخ عبد الحميد بن باديس

✍ فوزي لوحيدي
بلال بوتريه
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

منذ دخول الإستعمار الفرنسي إلى الجزائر سنة سعى جاهدا لتعزير غزوه العسكري بغزو ثقافي محكم، كان يهدف من وراءه تجريد الشعب الجزائري من أهم وأخطر أسلحته ألا وهو الشخصية الوطنية هذا السلاح المعنوي الذي جعل الشعب يحتفظ بكيانه العربي الإسلامي رغم كل ما تعرض له.

لقد قضى المستعمر الفرنسي منذ دخوله الجزائر على العديد من المؤسسات الثقافية والتعليمية كالمدارس والمساجد والزوايا ونهب التراث العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية (كتب- وثائق - مخطوطات)، كما قام بمصادرة المعاهد التعليمية الجزائرية وحولها إلى فرنسية ومنع التعليم باللغة العربية وأعتبرها لغة أجنبية الأمر الذي جعل نسبة الأمية بين أفراد الشعب الجزائري بعد قرن وثلث من الإحتلال تبلغ 94.9 بين النساء.

في هذا الواقع التعليمي والثقافي المزري ظهر الشيخ عبد الحميد بن باديس على الصعيد السياسي والإجتماعي والإقتصادي والثقافي، وعمل جاهدا لخدمة هذا الشعب وتعليمه لإسترجاع كرامته وحقوقه المسلوقة.

لقد عمل ابن باديس جاهدا على إيجاد جيل منزه التفكير من أضراليل الإستعمار سالكا بذلك مسلك التربية والتعليم، فتصدر التعليم سنة 1914 م فجمع حوله الكثير من الشباب المستعدين للدفاع على هذه الأمة، فعلمهم ورباهم ونفخ فيهم من روحه.

لقد أعطى الشيخ ابن باديس للمسجد أهمية كبيرة ودورا مهما في التربية والتعليم خلال الفترة الإستعمارية، وأعتبر أن دور المسجد لا يقتصر على الصلاة فقط بل إن له أدوارا تعليمية تربوية حيث يقول في هذا السياق) فكما أنه لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون علم).
وسنحاول في هذه المداخلة تسليط الضوء على دور المسجد في التربية والتعليم إبان الحقبة الإستعمارية من وجهة نظر الشيخ عبد الحميد بن باديس.

تمهيد:

لم يكن تأسيس المسجد في الإسلام على مر التاريخ للصلاة فقط بل كان لهذه المؤسسة العديد من الأدوار والمهام التي يؤديها فكان مكان صلاة ودار قضاء ومدرسة تعليم وثقيف ومكان لجمع التبرعات والمساعدات وقاعة إجتماع وتخطيط لشؤون السلم والحرب.

لقد أيقن الشيخ الإمام ابن باديس هذا الدور الشمولي للمسجد فراح يعي بدروسه الأمة الجزائرية في فترة كانت أحوج فيها ما تكون لهكذا دروس ومواعظ، بسب سياسة التجهيل والتضليل التي سعى جاهدا المستدمر الفرنسي منذ دخوله الجزائر، تطبقها على الشعب الجزائري، فقد جاهد الشيخ بعلمه ودروسه ظلام الجهل الذي فرضه الإحتلال الفرنسي في ذلك الوقت، ففجر ينابيع العلم والثقافة والتربية الروحية والأخلاقية في الأجيال.

لقد كان الشيخ الإمام ابن باديس معلم الأمة في أحلك ظروفها حتى قال فيه أحد أصدقائه الذي حملوا معه لواء الجهاد ضد الجهل والإستعمار الشيخ البشير الإبراهيمي > إن النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام

الحركة السلفية ومنشئ مجلة الشهاب مرآة الإصلاح وسيف المصلحين ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي والتفكير الصحيح ومحي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلا الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن وغارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مبادئها على البيان وفارس المنابر الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم...¹ .

1. واقع التعليم في الجزائر قبل وأثناء الإحتلال الفرنسي:

أ - قبل الإحتلال: عملت فرنسا منذ الغزو على محاربة الثقافة العربية، فقضت على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ قرون خلت، كذلك أغلقت نحو ألف مدرسة إبتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر سنة 1830م. وقد حمل أحد الكتاب الفرنسيين وهو- يولار- فرنسا مسؤولية تأخر الجزائر في القرن العشرين، إذ يقول: > لقد أشاع دخول الفرنسيين إلى الأوساط العلمية والأدبية، اضطرابا شديدا فهجر معظم الأساتذة الأفاضل مراكزهم هاربين. ولقد كان يقدر عدد لطلاب قبل 1830 م بمائة وخمسين ألف طالب أو يزيدون، ومهما يكن من أمر فلم ينجح من المدارس القديمة سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة، وحرمت أجيال عديدة من التعليم.²

روجت الدوائر الإستعمارية في أوساط الأجيال الصاعدة، أن الجزائر قد بلغت في القرون الماضية أسفل درجات الجهالة والهمجية، إذا لم يكن بالبلد أي تعليم منظم ولا حياة فكرية فلا عالم بينهم ولا كاتب أديب ولا شاعر.

¹ - تركي راجح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الطبعة الرابعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 183-184

² - فوزي لوحيدي : التعليم الرسمي وعلاقته بالحراك الاجتماعي في مجتمع الجنوب الجزائري، رسالة ماجستير، قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، 2009، ص 98.

غير أن الحقيقة التاريخية لا توافق ذلك في شيء، والواقع يدحض تلك الأباطيل، فما أستوي الجهل على الجزائر في القرون السالفة، وما انقطعت بالجزائر مسيرة التعليم وما انعدمت المدارس، ولا قلت العناية باللغة العربية وعلومها وآدابها، في جميع العصور الإسلامية، ومنها القرن التاسع عشر، فلم تزل وقتئذ المساجد في المدن حافلة بالأساتذة والتلاميذ، ولم تزل الزوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطلبة، وكلهم يبذلون جهودهم في الإمام بالعلوم ونشرها بين الجماهير، وحتى التعليم العالي لم يكن مهملا في عهد الجزائر العثمانية، فقد كان له نظام خاص يتكفل به مجلس بعاصمة الجزائر مؤلف من المفتين المالكي والحنفي ومن القاضيين المالكي والحنفي، وكان ذلك المجلس يعين ناظرا يقوم على التدريس ويقدم للداي بالجزائر، و الباي بقسنطينة وبوهران العلماء البر والإحسان، فكان بعاصمة الجزائر، عدد ليس بالقليل من المدارس، مثل مدرسة سيدي أيوب بالقرب من الجامع الجديد ومدرسة حسن باشا في جوار جامع كاتشاوة والمدرسة الكتانية، ومدرسة سيدي الأخضر ومدرسة مازونة.

تلك هي الوضعية التعليمية ولغتها العربية قبل الإحتلال، وهكذا كان حال الشعب الجزائري من الناحية العلمية والثقافية، مساجد عامرة بالأساتذة والتلاميذ ومدارس زاهرة وزوايا حافلة بالطلبة، وذلك بشهادة الأعداء حيث يقول إسماعيل أوربان : إن عدد العرب الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة في سنة 1937/1836 يفوق ما يوجد في الجيش الفرنسي المحتل عدد الأميين في الجيش الفرنسي المشار إليه كان يبلغ 45% وعليه كان عدد الأميين عند الجزائريين يقل عن تلك النسبة.

ب- مرحلة الإحتلال: ولقد أحب الإستعمار أن يسلك أوثق السبل إلى تحقيق أهدافه واستعباد أهلها إلى الأبد فأبدى تكالبا منقطع النظير في تقويض الركائز الأساسية للمجتمع محاولا طمس الهوية الجزائرية والقضاء عليها عن

طريق المدارس المخصصة لأهل البلاد فشرع في تنفيذ هذه الخطة عند تطبيق القانون المتعلق بالتعليم العمومي الفرنسي بموجب المرسوم المؤرخ في 1883/02/13 في عهد الجمهورية الثالثة، يقول محمد عمارة في هذا الصدد (كانت فرنسا قد شرعت في احتلال الجزائر سنة 1830م وأخذت في استعمارها لها لكنه لم يكن كغيره من أشكال الإحتلال ولم يكن استعمارا كالذي شهده أو شهدته كثير من البلاد في أفريقية وآسيا فهو لم يقف عند اغتصاب المستعمر للدولة والإدارة والحرية والأرض والثروة التي كانت للجزائريين على أرضهم ووطنهم وإنما ذهب المستعمر الفرنسي فأراد سحق الهوية القومية للشعب وإلقاء عروبتة لأنها رمز مغايرتهم للفرنسيين وهو قد أراد أن يكونوا فرنسيين حتى لا يكون وطنهم مجرد مستعمرة وإنما الامتداد الأفريقي للوطن الفرنسي عبر البحر المتوسط كما ذهب هذا المستعمر إلى مسخ الإسلام حتى يزيل طابعه القومي العربي في البيئة العربية وينتزع منه عوامل المقاومة فيتحول من شوكة بحلق الإستعمار إلى قيد يشغل خطى المناضلين في سبيل الحرية والإستقلال.¹).

لقد سعى الإستعمار الفرنسي منذ دخوله الجزائر إلى فرنسة الجزائر لغويا بإجلاء الفرنسية محل العربية وكتبوا بأحد التقارير التي وضعت سنة 1847م أن الجزائر لن تصبح فرنسية حتى تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها وللعمل الجبار الذي يتحتم علينا انجازه هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية لغته الدراجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا وتمثيلهم بنا وإدماجهم فينا، ولقد صنع الفرنسيون كل ما خطر ببال مستعمر استيطاني غاشم لتحقيق هذه الأهداف فأغلقوا يوم احتلوا البلاد أكثر من ألف مدرسة وبعد قرن وربع من احتلالهم سنة 1954م عندما أعلنت الثورة المسلحة ضدهم كانت الأمية في الجزائر 91% أما

¹ - محمد بن اعارة : الأمة العربية وقضية التوحيد، القاهرة، 1966، ص 99. نقلا عن عبد العزيز رأسال، مرجع سابق، ص 130

الذين كانوا يقرؤون العربية فلم يزد تعدادهم عن 200 ألف متعلم أغلبيتهم الساحقة في المدارس التي أقامها التيار القومي العربي كحركة التجديد والإصلاح كي يقاوم بها أهداف الإستعمار¹.

2. سيرة الشيخ عبد الحميد بن باديس:

مولده: ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بن محمد المصطفى بين الشيخ المكي بقسنطينة منتصف شعر ربيع الثاني في 1308 هـ الموافق لـ 05 ديسمبر 1889م، وقد كان الإبن البكر لأبويه، كان والده المصطفى بن المكي بن باديس حافظ للقرآن الكريم، وكان يشتغل بالتجارة والفلاحة، وكن من أعيان مدينة قسنطينة وقد عرف بدفاعه عن حقوق المسلمين في الجزائر²، وأمه السيدة زهيرة بنت علي ابن جلول من أسرة عرفت بالعلم والتدين.

تعلمه: لقد نشأ الإمام بن باديس في كنف تلك الأسرة المتدينة العريقة في العلم وكان والده باراً به ويمكن أن نقسم مراحل تعلم الإمام ابن باديس إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: كان ابن باديس يتلقى تعليمه بالطريقة التقليدية في الكتاب القرآني، فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد المداسي حفظاً جيداً في عر 13 سنة، ولأنه كان فذاً في الحفظ والأخلاق قدمه شيخه ليؤم المصلين في صلاة التراويح في شهر رمضان بالجامع الكبير بقسنطينة لمدة ثلاث سنوات متتالية³.

¹ - محمد بن اعجمرة: تحديات لها تاريخ، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، 1982، ص 250

² - مصطفى محمد حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، سلسلة كتاب الأمة، العدد 57، قطر، 1997، ص 47

³ - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 27

المرحلة الثانية: وفي هذه المرحلة تلقى الشيخ ابن باديس مبادئ العربية وبعض المعارف الإسلامية على شيخه حمدان الونيسي¹ بجامع سيدي محمد النجار، ويقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس عن شيخه الونيسي (... فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد علي أن لا أقرب وظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت⁽²⁾).

وكانت شدة تعلق ابن باديس بشيخه الونيسي كبيرة، لدرجة أنه لما عزم شيخه السفر إلى المشرق العربي، قرر ابن باديس أن يتبعه، غير أن والده منعه من ذلك وأرسله إلى الزيتونة ليكمل تعليمه.

المرحلة الثالثة: توجه الإمام الشيخ ابن باديس إلى تونس أين أكمل تعليمه الثانوي والعالى سنة 1908م بجامع الزيتونة المعمور، وفي رحاب الجامع الأعظم نبغ الإمام ابن باديس وتفتح عقله وذهنه على آفاق واسعة من العلوم والثقافة الإسلامية، وأنكب على أمهات الكتب والمخطوطات النادرة والنفيسة. وبقي ابن باديس بالزيتونة يطلب العلم لمدة أربع سنوات ليتحصل على شهادة العالمية في سنة 1911م³.

3. دور المسجد في التربية والتعليم في الفترة الاستعمارية عند الإمام ابن باديس:

لقد ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية بمساجدها ارتباطا وثيقا، فلم يقصر الإسلام رسالة المسجد على أداء الصلوات الخمسة فحسب، بل أراد الرسول

¹ - الشيخ حمدان الونيسي إبن الشيخ أحمد الونيسي، حفظ القرآن الكريم في الجامع، وعين مدرسا بالجامع الكبير سنة 1881م وأصبح بعد ذلك من الأعيان، وكان رجلا ذكيا من العلماء المستقلين فكريا، توفي سنة 1912 م.

² - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص 77-88.

³ - الزبير بن رحال: الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية (1889-1940م)، دار الهدى، عين مليّة، الجزائر، 1997، ص 11.

صلى الله عليه وسلم أن يكون للمسجد دور إيجابي وأهداف سامية تخدم المجتمع الإسلامي ككل¹، فإلى جانب أداء الصلوات هو موطن تلاوة وتدبر، ومعهد علم وتهذيب، ومجلس صلح وقضاء، وملتقى تعاون وتكافل، ومكان رأي ومشورة.

ولقد أعطى الشيخ الإمام ابن باديس أهمية كبيرة لمختلف مؤسسات المجتمع في تحمل مسؤولية التعليم والتربية، وقد أشار الشيخ إلى أهمية الأسرة في التربية والتعليم بقوله: (البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات، وقلة تدينهن²). وعن دور البيت والأسرة في تكوين الرجال وإعدادهم يقول الشيخ ابن باديس (فإذا أردنا أن نكون رجالا فعلينا أن نكون أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليما دينيا، وتربيتهن تربية إسلامية، وإذا تركناهن على ما هن عليه من الجهل بالدين فمحال أن نرجو منهن أن يكون لنا عظماء الرجال³).

وقد كان الإمام ابن باديس على قناعة أنه ليس بمقدور الأسرة أن تنهض بهذا العبء لوحدها، دون أن تتكامل جهودها مع جهود مؤسسات أخرى كالمدرسة والمسجد والنادي والصحافة، فالمسجد كان للوعظ والإرشاد وفهم الدين، والمدرسة لتربية وتعليم النشء الجديد وتخريج إطارات الثقافة العربية الإسلامية، والنادي كان للتوعية والتوجيه الوطني بالخطب والمحاضرات والمسامرات والمسرحيات والأشعار والأناشيد، والصحافة كانت انشر المبادئ

¹ - علي محمد مختار: دور المسجد في الإسلام، سلسلة دعوة الحق، العدد 14، دار الأصفهاني، جدة، السعودية، 1402هـ، ص 47

² - الزبير بن رحال، المرجع السابق، ص 24-25

³ - الزبير بن رحال: مرجع سابق، ص 25

والأهداف والدعوة إلى اليقظة والدفاع عن الجمعية ضد خصومها سواء كانوا من الإدارة الفرنسية أو من قطاعات المجتمع الأهلي¹.

وعن دور المسجد في إحياء الأمة وبعثها إلى الحياة يقول الشيخ ابن باديس: (فإذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر، وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر، صحيحة العقيدة، بصيرة بالدين، فتكمل هي في نفوسها ولا تهمل، وقد عرفت العلم وذائق حلاوته، تعليم أبنائها، وهكذا ينتشر العلم في الأمة ويكثر طلابه من أبنائها وتنفق سوقها فيه. أما إذا خلت المساجد من الدروس ... فإن الأمة تنفض عن العلم والدين وتنقطع علاقتها به، وتبرد حرارة شوقها إليه، فتحبس نفسها وأبنائها، وتمشي والدين فيما غريب²).

تصدر الشيخ الإمام ابن باديس التعليم بالمساجد منذ سنة 1914م، وانتظمت دروسه بكل من الجامع الأخضر، والمسجد الكبير، وسيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بمعزة، وسيدي فتح الله، وكان عمره آنذاك دون سن الخامسة والعشرين، فقد كان إقبال الطلبة عليه كبيرا لينهلوا من معين علمه بكل جد وإجتهد، فقد أثرت هذه الدروس تأثيرها العميق في أنحاء القطر مما أدى إلى انتشار الوعي الأدبي والفكري والإصلاحي³.

لقد كان الإمام ابن باديس يعلم الكبار والصغار في تلك الفترة وكانت دروسه تنطلق من صلاة الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء، فوجا بعد فوج، فالدروس العلمية التي كان يقدمها الشيخ (كانت تجتذب أفواجا من

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 87

² - الشهاب: ج 11، م 6، ص: 629 نقلا عن (عبد الرشيد زروقة: جهاد ابن باديس ضد الإستعمار الفرنسي في الجزائر (1913-1940)

دار الشهاب، بيروت، لبنان، 1999، ص 167)

³ - الزبير بن رحال: المرجع السابق، ص 27

الشباب ودروس الوعظ والإرشاد كانت تجتذب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح وتحدث كل يوم ثغرة في صفوف الضلال¹.

لقد التزم ابن باديس في دروسه المسجدية الأساليب الجديدة في العرض والطرح والتي تعتمد على سهولة توصيل الفكرة بأبسط الطرق المؤدية إلى ذلك، وتجنب اللفظيات والخلافات التي تشوش وتبعد الطالب عن فهم المعنى المقصود.

وقد ألحق الإمام ابن باديس بالمسجد فرعاً خصصه لتعليم الأميين والكبار في السن²، مقدار ما يرفع عنهم الأمية بشكل عملي فعال يتجاوز محاربتها بالخطب المنبرية الحماسية والعتابية.

لقد أدرك الإمام ابن باديس أن الأوضاع المأساوية الصعبة التي كان يعيشها الشعب الجزائري إبان الفترة الإستعمارية، لا يمكن تغييرها أو إصلاحها من دون تغيير الأفراد منطلقه في ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ³)، ومن ثم فقد كانت انطلاقة من إصلاح الفرد وتغييره، حيث يقول الإمام في هذا الصدد: (صلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به. وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم) الذين كيفما يكونوا يكون عموم المسلمين (فإذا كان علماءهم أهل جمود في العلم، وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون). وبالتالي لا صلاح لهم إلا بصلاح علمائهم (فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، لأن العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله) مؤكداً أن لا صلاح لعلماء الأمة، إلا إذا تم إصلاح أمر التعليم فيها، لأنه (هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم

¹ - سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 52 نقلاً عن (عبد الرشيد زروقة: مرجع سابق، ص 167)

² - عبد الرشيد زروقة: مرجع سابق، ص 168

³ - سورة الرعد: الآية 11

ونعني بالتعليم، التعليم الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون به فيه⁽¹⁾.

لقد كان ابن باديس يخاطب طلبته الذي يقبلون على دروسه بالمسجد قائلاً: (أنتم الآن أطفال صغار، وغدا إن شاء الله رجال كبار، وأنا لا أريد من هذه الرجولة إلا الشجاعة، وشدة البأس في الحق والخير والفضيلة، فخذوا حظكم من الشجاعة من الآن وحددوا معالم حياتكم منذ البدء، إن أمتكم وبلادكم بحاجة إليكم، فأقرؤوا هذه الآية الكريمة من كتاب الله (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ⁽²⁾)، ثم أعملوا في صبر ومثابرة، وجلد على تحصيل العلم، الذي به تهيئون أنفسكم لما أنتم مقدمون عليه⁽³⁾).

لقد أدرك الإمام ابن باديس أن نهضة الأمة لا تكون إلا بالتربية، وهذه الأخيرة لا تستقيم ولا تكون مجدية إلا إذا ارتكزت على تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق وكان منهجه في التعليم داخل المسجد منطلقه الأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر في ذلك الوقت، حيث كان منهجه في تربية الناشئة يستند على فكرة عدم التوسع في العلم، وإنما تربية الناشئة على فكرة صحيحة، ويعني بها تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق ولو مع علم قليل.

فكان الشيخ ابن باديس يؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم ويدربهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام،... وكان من طريقتة في

¹ - الشهاب: ج 11، م 10، ص: 478 . نقلا عن (عبد الرشيد زروقة: مرجع سابق، ص 129)

² - سورة التوبة: الآية 122

³ - محمد الطاهر فضلا: قال الشيخ الرئيس عبد الحميد ابن باديس، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1968، ص: 17-18

التربية أن يرمي إلى تصحيح الفكر، وصلل العقل وترقية الروح، وتقوية الخلق وتسديد الإتجاه في الحياة¹.

أما عن طريقة الشيخ ابن باديس في التعليم فقد كان يمزج بين القديم والحديث حيث اعتمد في ذلك على حفظ المتون وفهمها ودراسة الشروح والتعليق عليها، كما أعتد على الأسلوب الحديث في التعليم والذي يركز على الحوار بينه وبين طلبته، والمشاركة في دراسة النصوص وتوجيه الأسئلة لهم من حين لآخر حتى يختبر فهمهم وحضورهم العقلي لا الجسدي فقط ...، وبهذا الأسلوب الحكيم يضمن فهم التلاميذ للدرس، وهي طريقة كاد ينفرد بها².

ومما أمتاز به الشيخ الإمام ابن باديس هو حرصه الشديد على إفادة طلابه ومواصلة دروسه مهما كلفه الأمر من عناء ومشقة، فقد كان عمله يستغرق النهار كله وجزءاً من الليل فيبدأ الدرس الأول من بعد صلاة الصبح إلى منتصف النهار، ليستأنف التدريس بعد الصلاة الظهر إلى المغرب ليواصل من بعد المغرب إلى ما بعد العشاء، وهكذا كل يوم ما عدا يوم الجمعة فإنه يخصصه لزيارة بعض المدن للوعظ والإرشاد والتعليم، فقد كانت حياته رحمه الله حافلة بالعلم والتعليم.

بكل هذه الجهود العلمية والحضارية التي كان يبذلها الإمام ابن باديس في مجال التربية والتعليم والدعوة في المسجد، جعلت من هذه المؤسسة الدينية تلعب دوراً كبيراً مهماً في إحياء الأمة وانتشالها من مستنقعات الجهل والأمية إلى رياض العلم والمعرفة والحفاظ على هوية وشخصية الشعب الجزائري في الحقبة الإستعمارية.

¹ - الشيخ الإبراهيمي: الإستعمار الفرنسي في الجزائر، محاضرة بمعهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة، أقيمت في أوائل الخمسينات. نقلاً عن (الزبير بن رحال: مرجع سابق، ص 27)

² - الزبير بن رحال: مرجع سابق، ص 28

4. الفنون والعلوم التي كان يدرسها الشيخ ابن باديس بالمسجد:

1. اللغة العربية:

لقد أعطى الإمام عبد الحميد ابن باديس للغة العربية أهمية كبيرة ومجالا واسعا من إهتماماته، فقد كان يرى أن من حقنا والواجب علينا كمسلمين وجزائريين تشربت عروقنا هذه اللغة الكريمة من معين قوميتنا الشريفة أن نكرم اللغة العربية بل ويذهب ابن باديس أكثر من ذلك عندما يقرر بأنه يجب علينا أن نكرم من يرفع من شأن لغتنا العربية¹.

ويعود حرص الشيخ ابن باديس على اللغة العربية وضرورة الحفاظ عليها، كون هذه اللغة الوطنية والقومية للمجتمع الجزائري، إضافة إلى الأخطار المحدقة باللغة العربية في الحقبة الإستعمارية، فقد ناصبت فرنسا العداء للغة العربية وأساتذتها وتعرضوا لمن يقوم تعليمها بالمكروه والبلاء²، فمشكلة العروبة في الجزائر أساسها وسببها الإستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب وعروبتهم ولغتهم ودينهم الإسلام، ووجود المشكلة منوط بوجوده، فإذا زال زال العنصر الأكبر منها، والسبب الأعظم فيها، وإذا بقي ولو إلى حين >> فمشكلة العروبة في الجزائر سائرة إلى واحد من إثنين، إما أن تغلب الإستعمار على عروبتنا ونعالج مشكلتنا بأدينا. وهذا ما تفعله جمعية العلماء منذ قامت، ثم لا نجد عائقا بعد الإستعمار الفرنسي على عروبتنا فتتطور المشكلة إلى شيء آخر وما يقض مضاجعنا³.

لقد كان إهتمام ابن باديس باللغة العربية كبيرا- كما مر- فهو يرى أنها لغة الدين الذي هو أساس حياتنا ومنبع سعادتنا، ومن ثم فإن حقائق هذا الدين لا تكون إلا باللسان العربي الذي أنزل به مصداقا لقوله تعالى: (إنا

¹ - مسعود جباري: الفكر السياسي عند الشيخ بن باديس، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 2002، ص159

² - محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص150

³ - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص150

أنزلناه قرآن عربياً¹، فالحفاظ على اللغة هو حفاظ على الدين، فاللغة العربية عند الشيخ ابن باديس هي الرابطة التي تربط بين ماضي الجزائر المجيد، وحاضرها الأغر، ومستقبلها السعي².

2. العلوم الإسلامية:

لقد أعطى الإمام ابن باديس أهمية بالغة لتدريس وتعليم العلوم الإسلامية وتفقيه الأمة عامة والطلبة خاصة في أمور دينهم، فقد كان ابن باديس يؤمن بأن هذا الدين فيه من القوة والعزيمة ما يمكن الشعب الجزائري من إسترجاع حريته المسلوبة وإخراج المستدمر الفرنسي.

لقد كان من الضروري أن يهتم ابن باديس بهذا التعليم الديني، من حيث أنه يدرك بأن لا بقاء للمسلمين إلا بفقه دينهم وتعلم أخلاقه وآدابه وأحكامه، وإلا ذابت شخصيتهم الإسلامية، وهو الأمر الذي يسعى جاهدا للإحتلال الفرنسي تحقيقه، فناسب القائمين على التعليم العداء، وتعرضوا لمن يحض عليه بالمكروه لهدموا الشخصية الإسلامية، فقد أيقن ابن باديس أنه لا سبيل إلى تمكين الفرنسيين من هدفهم إلا إذا رجع المسلمين بالتعليم الديني إلى الهدي النبوي في شكله وموضوعه ومادته وصورته³.

ولما كان تعليم العلوم الإسلامية وإرجاع الأمة لدينها بهذه الأهمية البالغة عند الشيخ الإمام ابن باديس فقد كان حريصا على جمع أكبر عدد ممكن من الشعب وطلبة العلم في المسجد ليتفقهوا في دينهم، وقد انطلقت هذه الدروس المسجدية يوم السبت 02 رجب 1352 هـ الموافق لـ 21 أكتوبر 1933م، وكان يشرف على هذه الدروس الشيخ ابن باديس ومجموعة من علماء جمعية العلماء المسلمين، وكانت هذه الدروس تشمل على تفسير القرآن وتجويده

¹ - سورة يوسف: الآية 02

² - الزبير رحال: مرجع سابق، ص 29

³ - أحمد محمود الجزائر: الإمام ابن باديس والتصوف، سلسلة دراسات في الفكر الحديث والمعاصر (1)، منشأة المعارف، الإسكندرية،

1999، ص 69

وعلى الحديث الشريف والفقہ المختصر، وعلى العقائد الدينية وعلى الآداب والأخلاق الإسلامية وعلى العربية بفنونها من نحو وصرف وبيان ولغة وأدب وعلى الفنون العقلية كالمنطق والحساب وغيرها.

وقد كان تعطى لطلبة العلم المحاويع وهي عبارة عن إعانة من الخبز وكان سكنهم في المساجد ويخصص لكل مجموعة من الطلبة عريف يضبط أمورهم ويراقب سيرتهم¹.

إن إهتمام ابن باديس بالتعليم الديني لم تنشأ من فراغ، أي بدون مقدمات ولا أسباب، فقد كانت هناك العديد من العوامل التي دفعته لذلك:

▪ لقد كانت الجزائر من أغنى البلاد الإسلامية بالأوقاف وكان في مدينة الجزائر وحدها ثمانية آلاف عقار، لم يبق منها بعد الإحتلال ولا عقار واحد، بسبب سيطرة المستدمر الفرنسي على المساجد ومصادرة الأوقاف الدينية والخيرية²، وهو أمر منطقي ومفهوم كون الحملة على الجزائر كانت صليبية استعمارية.

▪ فتح الإستعمار الفرنسي باب التبشير بالجزائر في محاولة يائسة لإخراج الجزائريين من دينهم وتنصيرهم كي يصبحوا مسيحيين يحملون عقيدة المحتل وهذا ما أعلنه سكرتير الحاكم العام الفرنسي للجزائر سنة 1832م حيث قال: (إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لت يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن تشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد³).

▪ كذلك فإن من العوامل التي جعلت الشيخ ابن باديس يهتم بالتعليم الديني إضافة إلى ما ذكرنا هو التربية الصالحة التي نشأ عليها الإمام ابن

¹ - محمد الميلي: مرجع سابق، ص 139

² - الزبير رحال: مرجع سابق، ص 30

³ - نفس المرجع، ص 31

باديس على يد والده وعنوانها تحفيظه القرآن في سن مبكرة وتأديبه على هديه¹، والجهود التربوية التعليمية التي قام بها شيوخه لعل أبرزهم محمد المداسي وحمدان الونيسي.

3. التاريخ:

لقد أعطى الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس أهمية كبيرة لدراسة التاريخ وتدرسه لطلبته، وكان هدفه من ذلك هو بعث الاعتزاز بتاريخ الأجداد وأمجاد الماضي في نفوس تلاميذته حتى تكون لديهم الدافع القوي الذي يمكنهم من مجابهة المحتل الفرنسي وإخراجه من أرض الجزائر.

فلقد تزامن اهتمام ابن باديس بتدريس التاريخ لتلاميذه، مع الحرب الهمجية التي شنها المستعمر الفرنسي على التاريخ قصد إضعاف الشخصية الوطنية والولاء للوطن لدى الشعب الجزائري متخذاً في ذلك العديد من الإجراءات نذكر منها²:

▪ تركيز علماء الآثار والتاريخ الفرنسيون نشاطهم ودراساتهم على التاريخ الجزائري في العهد الروماني قبل الإسلام، والفترة الفرنسية إبان الإحتلال، وتجاهلوا تاريخ الجزائر في العهد الإسلامي، وكان هدفهم من ذلك هو إقناع الجزائريين بأن بلادهم فرنسية منذ تاريخها القديم إلى حاضرها وحتى مستقبلها.

▪ اعتبروا أن الفتح العربي الإسلامي للجزائر منذ القرن الأول الهجري بمثابة إستعمار عربي للجزائر.

▪ يدرس الأطفال الجزائريين في مدارس الإحتلال في مادة التاريخ أن بلادهم في القديم تسمى الغال la gaul وكان أجدادنا يسمون la gaulois

¹ - عامر علي العرابي: الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، السعودية، 1409 هـ، ص 84
² - الزبير رحال: مرجع سابق، ص 32

والقصد من هذا هو مسخ وتشويه التاريخ الإسلامي العربي، وتنشأ الطفل الجزائري وهو معتقد أن أصل أجداده ينحدر من الغاليين جنوب فرنسا وليس من العرب في شبه الجزيرة العربية.

خاتمة:

لقد سعى الإحتلال الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر إلى انتهاج كافة السبل للسيطرة على الوطن وشعبه، فشن عليهم حربا عسكرية وثقافية لا هوادة فيها، إلا أن هذا الشعب العظيم لم يقف مكتوف الأيدي، فقد قاوم هذا المحتل منذ وطئ الجزائر.

لقد قيض الله لهذه الأمة الشيخ عبد الحميد إبن باديس- رحمه الله- الذي حمل لواء الجهاد ضد المستعمر الفرنسي فحطم في النفوس جدار الرعب الذي زرعه فرنسا بالحديد والنار في نفوس الجزائريين، وطوقت به كالسوار في المعصم البلاد والعباد، برفع سلاح العروبة والإسلام في وجه المستعمر الطاغى، محاربا بعزيمة لا تلين كل من يمس عروبة الجزائر وإسلامها ومنفتحا على عالمه العربي والإسلامي بألامه وآماله إنفتاحا واتصالا فكريا وروحيا، فأستحق أن يكون علامة الجزائر وإمامها ورمزا للعلم رحمة الله عليه.

المراجع:

1. تركي رايح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر. الطبعة الرابعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
2. فوزي لوحيدي : التعليم الرسمي وعلاقته بالحراك الاجتماعي في مجتمع الجنوب الجزائري، رسالة ماجستير، قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، 2009
3. محمد بن عمارة : الأمة العربية وقضية التوحيد، القاهرة، 1966
4. محمد بن عمارة:تحديات لها تاريخ، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، 1982،
5. مصطفى محمد حميداتو:عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، سلسلة كتاب الأمة، العدد 57، قطر، 1997
6. عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس.
7. عمار طالبي: ابن باديس حياته وأثاره، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983
8. الزبير بن رحال:الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية (1889-1940م)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1997
9. علي محمد مختار:دور المسجد في الإسلام، سلسلة دعوة الحق، العدد 14، دار الأصفهاني، جدة، السعودية، 1402هـ.
10. أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986
11. عبد الرشيد زروقة:جهاد ابن باديس ضد الإستعمار الفرنسي في الجزائر(1913-1940) دار الشهاب، بيروت، لبنان، 1999
12. محمد الطاهر فضلا: قال الشيخ الرئيس عبد الحميد ابن باديس، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1968
13. مسعود جباري: الفكر السياسي عند الشيخ بن باديس، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 2002
14. محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007
15. أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997
16. أحمد محمود الجزائر: الإمام ابن باديس والتصوف، سلسلة دراسات في الفكر الحديث والمعاصر (1)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999
17. عامر علي العرابي: الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، السعودية، 1409 هـ.